ŞAİR "AY'IN BASAL EL-HARRANI" ve ŞİİRİ (16\04\1310م - 15\11\709 هـ)

الشاعر "عين بصل الحرانى" وشعره.

Mahmut POLAT*

Özet

"İbrahim b. Ali b.Halil el-Harrani", "Şair A'yin Basal" olarak şöhret bulmuş dogmatik ümmi şairlerden biridir. Günlük geçimini yapamayacak derecede fakir olarak yaşamış olan şair, şiiri, geçim kaynağı olarak kullanmış ve başka insanların yardımıyla hayatını sürdürmüştür.

"Şair A'yin Basa"'in şiirlerini ve hayatını bize nakleden kaynaklar çok azdır. Bununla beraber bu kaynaklar, edip ve şairlerin hayatlarını konu edinmiş temel kaynaklardır. Bu nedenle ona bir şair gözüyle bakıp onun hayatını ve şiirlerini tedvin eden kaynakların onun hakkındaki hükümü: "A'yın Basal el-Harrani "nin Şiirleri, bir ümminin söyleyebileceği en güzel ve kabul gören nazımlardır" şeklinde özetleyebiliriz.

Kaynaklar, şair "A'yın Basal el-Harrani"nin farklı vezinlerde yazmış olduğu şiirlerini, ya tam kaside olarak ya da da ikişer beyit şeklinde tedvin etmişlerdir.

Her ne kadar, Şairin tüm şiirleri tedvin edilmemişse de, günümüze kadar gelen şiirleri, şair ve şiirleri hakkında bize bilgi vermekte ve müstakil bahis konusu olarak ele almaya yetmektedir.

Anahtar Kelimeler: A'yın Basal, A'yın Basar, A'yın Basal el-Harrani, Şair A'yın Basal, Ibrahim b. Ali el-Harrani

الملخص

إنَّ الشاعر , إبراهيم بن على بن خليل الحرانى , المعروف بـ" عَيْنُ بَصَلٍ الْحَرَّانِى". هو من الشعراء الأميين المطبوعين. وقد عاش فقيرا , بحيث لا يجد قوت يومه , مُتخذا الشعر مَكسبا لمعاشه, مُعتمدا على برِّ الناس وإحسانهم.

وإن المصادر التى قد تناولت حياة هذا الشاعر المطبوع , والذى على القريض مجبول قليلة جدا , إلا أنها من المصادر الأساسية التى تخصصت بتناول سِيَر الشعراء وأخبار الأدباء. وقد ذكرت هذه المصادر , بأن الشاعر له

* Yrd.Doç.Dr., Erzincan Üniversitesi İlahiyat Fakültesi, Arapdili ve Belağatı Anabilim Dalı, mahmutpolat7@hotmail.com

الإستطاعة بنظم الشعر بديهيا, فى كل مناسبة سنحت له. ولذا فإننا يمكننا أن نلخص حكم هذه المصادر على شعره, كشاعر إستحق الذكر والتدوين بأن:

" أشعارعين بصل الحرانى مقبولة, و هى من أحسن الأشعار التى قد تصدر من شاعر أُمِيّ ".

وإن هذه المصادر التى تناولت سِيرة عين بصل , قد نقلت لنا أشعاره المنظمة ببحور مختلفة على شكل قصدة تامة, أو نقلت بيتيْن من تلك القصائد التى لم تنقل كاملة.

وإن "أشعار الشاعر عين بصل" مع أنها لم تدون بتمامها , إلا أن هذه الأشعار التى إنتقلت إلى يومنا هذا , مع قلتها, تعطينا فكرة عن الشاعر, وتكفى لإظهار, وتناول مكانته الأدبية والشعرية فى بَحْثٍ خاصٍ.

كلمات البحث: "عين بصل" , "عين بصر", "عين بصل الحرانى", "الشاعر عين بصل", "إبراهيم بن على الحرانى".

❋❋❋

A'yın Basal El-Harranı and His Poems

Abstract

"Ibrahim b. Ali al-Harrani b. Halil" is one of the dogmatic improvisers who found fame as " A. Basal the poet ". He was extremely poor to such an extent that he could not make a daily living and he used poetry as a means of livelihood. He also survived with the help of other people.

Though some information exists about A. Basal's poems and life, these resources are limited. For example, some information can be found in reference books and literary anthologies. These resources have lead scholars to conclude that "A'yın Basal el-Harrani's" unique style is regarded as one of the most beautiful examples of poetry written by an illiterate person.

According to references, A'yın Basal el-Harrani's poems were composed in various meters, either in the form of odes or couplets. Albeit all of "A'yın Basal's" poems haven't been recorded, those that have survived give enough information about him and his poetry to create a platform for discussion and further review.

Key Words: A'yın Basal, A'yın Basar, A'yın Basal el-Harrani, Şair A'yın Basal, Ibrahim b. Ali el-Harrani

المقدمة

لا شك, أن الحرانيين, ممن ساهموا فى جميع أصناف العلوم, على شتى اختصاصاتها وتنوعها. ومن المعروف, أن أغلب من انتسب إلى "حَرَّانَ" من أدباء, وشعراء, وعلماء فى العصور الاسلامية, والتي قبلها, لم ينلْ مُعظمهم الاهتمام على الوجه المرغوب الذي يليق بهم, وبمكانتهم الأدبية أو العلمية التي كانت لهم من قبل. وبهذا الاهمال وعدم الاهتمام بأعمالهم الأدبية, والعلمية لتلك الثروة, صارت مطوية تحت يد الضياع والفقدان. وقد جاء هذا الاهمال فى عصرنا عكس ما كان عليه الحرانيون فى عصور العُمران والازدهار لـ"حرانَ". حيث كانت كتب العلم تسجل أقوالهم, ونوادي الأدب تنشد أشعارهم, وطلاب العلم والأدب ينقلون أخبارهم.

وإن الواقع الذي نراه فى عصرنا الحاضر, فى الجهود العلمية والأدبية, أنها قد تراكمت حول المؤلفات والكتب والدواوين والمجاميع ومؤلفيها, وقد أهمل من كانت أعماله وجهوده العلمية والأدبية مشتتة ومتفرقة بين المصادر والكتب كـ"عين بصل" وأمثاله. والحق أن هذا المتشتت المبعثر الذي نلاقيه بين الحين والاخر فى ثنايا الكتب, لا يقل قيمة علمية, ولا رونقا أدبيا عن أقوال وأشعار وأخبار المكثرين.

وإننا لنجد فى هذا المتناثر آراءا وأقوالا وأشعارا للمقلين, ما لا نجده لدى غيرهم من المكثرين. وكم من مُقِلٍّ وصل إلى كشف حقيقة علمية برأيٍ صائبٍ, أو أشار إلى عمل إبداعي, لم يشير إليه غيره من المكثرين. وإن توجيه الجهود إلى مثل هذه الأعمال, أمر لا يقل قيمة ولا شأنا عن بذل الجهد والسعي لتحقيق كتابٍ من كتب العلماء البارزين, أو ديوان من دواوين الشعراء المرموقين.

وإن الشاعر "عين بصل الحراني ", كانت له مكانة مرموقة بين أهل عصره وبلده, لذا استحقت أشعاره التدوينَ, وسيرته التسجيلَ فى هذه المصادر القديمة, مع أنه من الشعراء العاميين. ولولا ذلك ما ذكرته تلك المصادر التي حفظت لنا سيرته وأشعاره. وهذا يكفينا سببا لتناول سيرة هذا الشاعر, وبالتوجه إلى أشعاره ببحث خاص, يُنعش ذاكرةَ البيئة الأدبية فى يومنا الحاضر.

أ - حياة الشاعر عين بصل الحراني

هو الأديب, الشاعر, أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن خليل الحراني المسيدي، [1] المعروف بـ"عين بصل"[2]. وقد اشتهر وعرف بهذه الشهرة. وكان على ما اشتهر من أمره حائكاً أمياً مطبوعاً, أناف على الثمانين. وكان أبوه شوَّايًا فى حرانَ [3]. وكان بعض الناس يتكلف معاشه وقوته اليومي. وكان عين بصل فقيراً, لا يجد ما يكتسي به ويلبسه. وكان يترحم عليه بعض الناس من أصحاب الخير, فيهبونه قماشاً ليلبس، وما يكلفونه معاشاً. وكان يلبس القطعة مدة، وإذا أفلس باعها، ومد إليها كف نفقته ببيعها، فلامه بعض الناس على هذا الاعتماد. وقال: "هذا موجب لأن يسوء منهم فيك الاعتقاد،" فاعتذر لذلك بأبيات أنشدها لمن لامه على ذلك ارتجالا,4

[1] العسقلاني,الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد,الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة,تحقيق مراقبة : محمد عبد المعيد ضان,مجلس دائرة المعارف العثمانية, صيدر آباد,الهند,1972,ج 1 ص46 .

[2] جمال الدين ابي المحاسن يوسف ابن تغري بردي,الدليل الشافي على المنهل الصافي,تحقيق: فهيم محمد شلتوت, ط:الثانية , دار الكتب المصرية, القاهرة, 1998, ج 1 ص 22. ؛ العسقلاني, الدرر: هو السدي, ج 1 ص46.

[3] ابن تغري بردي,الدليل الشافي, ج1 ص 22.

[4] ابن خلكان , 1211- 1282 م. هوأحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس البرمكي الإربلي الشافعي، ولد بأربل سنة ثمان وستمائة هجرية. كان فاضلاً بارعاً متفنناً عارفاً بالمذهب حسن الفتاوي جيد القريحة بصيراً بالعربية علامة في الأدب والشعر وأيام الناس، كثير الاطلاع حلو المذاكرة وافر الحرمة، فيه رياسة كبيرة، وقد اشتهر كثيراً وله مجاميع أدبية. مات عشية نهار السبت سادس عشرين شهر رجب سنة إحدى وثمانين بالنجيبية النورية وشيعة الخلائق. ترجمته في: الكتبي,محمد بن شاكر ,فوات الوفيات,المحقق : حسان عباس ,الطبعة الاولى, عدد الأجزاء :4 , دار صادر, بيروت,1973 - 1974, ج 1 ص 1 ؛ ابن عماد الحنبلي,ابو الفلاح عبد الحي. شذرات الذهب في أخبار من ذهب, طبعة جديدة, دار التراث العربي, بيروت, ج 5 ص 370.

ويحكى, أن بعض أعيان عصره التقوا به[5]. وقد طال عمره. ولكن لم يخمد توقد جمرة فؤاده فى نظم الشعر. وله الشعر المقبول، لأنه هو الشاعر المطبوعُ, الذي على القريض مجبول, ولم يزل "عين بصل" فى اكتسابه وتعاطيه للشعر, وانتسابه وتوكله على بر الناس به. واستمراره على التخبط بين الحكاية والحكاية, وانقلابه من الشكر إلى الشكاية, إلى أن رقد فما انتبه. فتوفي - رحمه الله تعالى- يوم الخميس منتصف ذي القعدة سنة تسعة وسبع مائة. الموافق السادس عشر من نيسان, عام ألف وثلاث مائة وعشرة ميلادي.[6]

ب - تحقيق أخباره

إن أخبار " الشاعر عين بصل الحراني" قليلة, إلا أنها متنوعة. منها الخبر الثابت, ومنها الخبر الغير ثابت. مثل خبر إلتقاء ابن خلكان به. لقد نقل أكثر من مصدر, بأن "قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان"- رحمه الله- التقى به, واستنشده شيئاً من شعره. وأن ابن خلكان حكم على شعره, فقال:

" أما القديم, فما يليق. وأما نظم الوقت الحاضر, فنعم" [7]. ونُقل أيضا, بأن عين بصل أنشده:

وَما كلُ وقتٍ فيهِ يَسْمَحُ خَاطِـــري بِنظمٍ قَرِيضٍ رَائِقِ اللَّفْظِ والمَـعْنى [8]

وهلْ يَقتضي الشَّرعُ الشَّريفُ تَيَمُماً بِتُرْبٍ وَهَذَا البَحْرُ يَا صَاحِبي مَعَنَا[9]

إلا أنه قد ظهر لنا, بعد البحث والتحقيق, بأن هذا الخبر الذي نقلته المصادر التي ذكرت لنا سيرة وأشعار " عين بصل " خبرٌ غير صحيح, وغير ثابت. وأن الخلط فيه بارز وبَائِن. وأنه على هذا الشكل مناف لصحة العلم والتحقيق. لإن" قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان" - رحمه الله تعالى- ليس من معاصري " عين بصل ". وقد

[5] ابن الوكيل,1267-1317 م:هو الشيخ صدر الدين ابن المرحل,محمد بن عمر بن مكي بن عبد الصمد , بن عطية بن أحمد بن عطية. ولد في شوال سنة 665 هـ بدمياط,ونشأ بدمشق, ويعرف بابن الوكيل , المصري الأصل العثماني الشافعي, أحد الأعلام وفريد أعاجيب الزمان في الذكاء والحفظ والذاكرة. أفتى ودرس وشاع صيته ولي مشيخة دار الحديث بالأشرفية وجمع موشحاته وسمى الكتاب "طراز الدار" توفي بالقاهرة ودفن عند الشافعي سنة 716 هـ . ترجمته: الكتبي, ج4 ص13؛ كحالة, عمر رضا, معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية,الطبعة الاولى, مؤسسة الرسالة,1999,ج 11 ص 94 ؛ الزركلي, خير الدين,الاعلام, الطبعة 5, دار العلم للملاين,1980,ج 6 ص 314.

[6] انظر ترجمة "عين بصل" : الصفدي , صلاح الدين خليل بن أيبك,الوافي بالوفيات , تحقيق واعتناء: احمد الأرناوطي – تركي مصطفي, دار احياء التراث العربي لبنان بيروت,ج 6 ص 46؛ الكتبي, ج 1 ص 35؛ الصفدي,صلاح الدين خليل بن أيبك,أعيان العصر وأعوان النصر,تحقيق : الدكتور علي أبو زيد، الدكتور نبيل أبو عشمة، الدكتور محمد موعد، الدكتور محمود سالم محمد, تقديم: مازن عبد القادر المبارك, الطبعة الاولى, دار الفكر, دمشق,1998, ج 1 ص17- 18؛ ابن ابن تغري بردي,جمال الدين أبو المحاسن يوسف الاتابكي, النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة, تقديم: وتعليق: محمد حسين شمس الدين, الطبعة الأولى, دار الكتب العلمية, بيروت,لبنان , 1992, ج 8 ص 226 ؛ ابن ابن تغري بردي, الدليل الشافي, ج 1 ص22؛ العسقلاني,الدرر,ج 1 ص47 ؛ الزركشي, عقود الجمان وتذيل وفيات الأعيان,المخطوط,عمادة شؤون المكتبات,جامعة الملك سعود,رقم, 3065 حرف ب. ص 17؛ ابن ابن تغري بردي,الدليل الشافي,ج 1 ص22.

[7] الصفدي,الوافي,ج1 ص 47؛ ابن ابن تغري بردي,النجوم,ج 8 ص 226؛ الكتبي,ج 1 ص 35.

[8] الصفدي,أعيان, ج 1 ص 17: ما كل وقتٍ يسمح خاطري.

[9] الصفدي,الوافي,ج1 ص47؛ الصفدي,أعيان,ج 1 ص17.

توفى ابن خلكان قبل ما يولد عين بصل. فلا يمكن أن يسمع منه ويحكم على شعره, لا قديما ولاجديدا.

وإن الخبر الثاني, هو كذلك من هذه الأخبار التي وقع الخلط فيها, وهو خبر إلتقاء "الشيخ صدر الدين بن الوكيل" - رحمه الله تعالى- به. فعلى سبيل المثال نورد قول الصفدي[10] المتناقض فى أخباره التي نقلها, فإنه بعد ما ذكر خبر الالتقاء به قال:

" إن ذلك اتفق له مع "الشيخ صدر الدين بن الوكيل" - رحمه الله تعالى-". ثم أتبع الصفدي بقوله " قلت:

"وليس ذلك بصحيح، فقد ذكر المؤرخون أن شميماً الحلي[11], لما قدم إسعرد[12]، قصده شعراؤها, وأنشدوه أشعارهم. وكان فيهم من أنشده شعراً فاستكثره عليه, وقال:

"أنظم الآن لي شيئاً, فأنشده ذلك الرجل فى الحال، وهذا هو الصحيح". ثم قال الصفدي:

" لإن شميماً الحلي توفى بالموصل, سنة إحدى وست مائة, وإن "عين بصل" لم يكن قد خلق بعد"[13]

وعلى هذا النقل المتناقض من الصفدي, ظهر بأن هذه اللقاءات بـ"عين بصل " لم تتم. وقد وقع فيها الشك واللبس. وهذا واضح وظاهر. وإن هذا النقل الخاطئ, قد ورد فى جميع المصادر التي نقلت خبر اللقاء بابن خلكان, وذكرت كلامه وحكمه على الشاعر عين بصل.

ومع هذه الأقوال المتناقضة, والأخبار المتضاربة, فى النقول حول اللقاءات التي وردت فى هذه المصادر. ويظهر أن هنالك لقاء قد حصل وتحقق لـ"عين بصل" بأعيان عصره, إلا أن هذا اللقاء كان مع أي من أعيان عصره, فهذا هو الذي قد وقع التعارض والاضطراب فيه. وإن اللقاء المحقق والمحتمل من بين هذه اللقاءات, هو صحة إلتقاء "الشيخ صدر الدين ابن المرحل": (ابن الوكيل) (665 - 716 هـ / 1267 - 1317 م) بـ" عين بصل" تاريخيا. لأن "عين بصل" توفي عام (709 هـ) و"الشيخ صدر الدين بن المرحل", عاش إلى سنة (716هـ), وإن هذا يقوي قولنا بترجيح ملاقاة "الشيخ صدر الدين" بـ "عين بصل". لأنهما متعاصران, ولا يبتعد وقوع اللقاء بينهما.

وإن الأمر الثاني الذي يجب التنبيه إليه, هو: فإن هذه الأخبار التي نقلت لنا لقاء أعيان العصر الذين التقوا بـ"عين بصل", قد وقع الشك, والتعارض فيها, إلا أنها أخبار قد ذكرت هذه اللقاءات, ونقلت الحكم على شعره, وعلى شاعريته. ومع عدم

[10] الصفدي,أعيان,ج 1 ص17.

[11] شميم الحلي , 1204 م. علي بن الحسن بن عنتر بن ثابت الحلي، أبو الحسن المعروف بشميم الحلي. شاعر ومن العلماء بالأدب من أهل الحلة المزيدية، نشأ ببغداد، وسافر إلى الشام وديار بكر. ومدح الأكابر وأخذ جوائزهم واستوطن الموصل وتوفي بها عن نحو تسعين سنة. انظر ترجمته :الزركلي,ج 4 ص 274؛ الكتبي,ج 3 ص 339.

[12] إسعرد : مدينة في جنوب شرق تركيا.

[13] الصفدي,الوافي,ج1 ص 47,الصفدي,أعيان, ج 1 ص 17.

صحة وقوع هذا اللقاء, وهذا الحكم الذي لا يمكن صدوره من رجل توفى قبل ما يولد "عين بصل" إلا أن "القولَ" موجود و"الحُكم" وارد, ومناسب, ومتوقع.

وأيضا, فإن هذا الأمر غير منافى للحكم على شاعرٍ ذكرته المصادر المعتمدة, واهتمت بتسجيل سيرته كشاعر استحق الذكر والتدوين, بما له من أشعار. ومما لا شك فيه, أن هذا الحكم التاريخي, الأدبي الذي نُقل من قبل تلك المصادر, لا يمكن أن نتركه على جانب الاهمال. ويلزم أن لا ننسى مع أهمية, ومكانة القائل للقول فى الحكم على شيئ, وننسى أهميةَ القول فيه, والحكم على ذلك الشيئ نفسه أيضا. فإن قائل القول, له أهمية خاصة, وللقول أهمية ومكانة مستقلة عن القائل, حيث تمتاز النصوص بها. فإن " الحكمة ضالة المؤمن, أين ما وجدها أخذها ". وإن هذه القاعدة الأساسية, ما هي إلا إشارة إلى الإهتمام بالقول والنص, مع أنه لو عرف قائل ذلك القول, لكان أحسن وأوقع فى النفوس, من جهالة القائل للقول, وعدم معرفته.

وما أكثر الأقوال التي نقرؤها فى الكتب والمصادر المعتمدة, كقول " قيل عنه " و" قيل فيه " و " قال بعضهم " و " روي عن بعض الناس " الخ. من الأقوال. وما أكثر ما نعتمد على مثل هذه النقول, ونُسْدي إليها الإعتبار, بالنقل تارة والإستشهاد تارة أخرى, حتى فى أهم النقول, وفى أهم الروايات للنصوص الدينية, والتاريخية, والأدبية.

ج ـ مكانته الشعرية[14]

ومما لا شك فيه, أن لـ" عين بصل " شهرة, قد تعدت بلده الذي كان يعيش فيه, إلى أن زاره, والتقى به وجوه العصر والأعيان. وإننا نقول هذا, مع غض البصر عن الاضطراب الذي وقع فى نقل تلك الأخبار. ويظهر لنا, بأن الشاعر مطبوع, وله الاستطاعة بنظم الشعر, بحيث " يُنفس قلبَ المغري, لأنه على القريض مجبول, وقد طال به العُمرُ, وأناف على الثمانين، ولم يخمد توقد جمره." [15]

ويحكم ابن خلكان على شعره بقوله:

"أما القديم فما يليق، وأما نظم الوقت الحاضر فنعم" [16]، ثم لا يتمالك هذا الأديب, بعد ما يستنشده الشاعر من شعره, فيطرب لتلك الأبيات فيقول له بل:

" أنتَ عَيْنُ بَصَرٍ، لا عَيْنُ بَصَلٍ". [17]

وإننا نرى له بداهة فى نظم الشعر, عندما يطلب منه ذلك, فى مواقف متعددة. فعلى سبيل المثال, لما يطلب منه وصف إمرأة برزت فى ليلة مقمرة, وغرست فوق خدها زهرة نرجس. فنراه ينشد الحاضرين فيها فورا:

غَرَسَتْ فى الخَدِّ نَرجِسَةً ... فَحَكَتْ فى أَحْسَنِ الصُّوَرِ [18]

[14] الصفدي,الوافي,ج1 ص 46 47؛ الكتبي,ج 1 ص 35,الصفدي,أعيان, ج 1 ص 17.
[15] الصفدي,أعيان,ج 1 ص 17.
[16] الصفدي,الوافي, ج1 ص 47.
[17] ابن تغري بردي,النجوم,ج 8 ص 226,الكتبي,ج 1 ص 35, الصفدي,الوافي, ج1 ص 47.

وإن الصفدي ينقل لنا خبرا آخرا لهذا الشاعر, مشيرا إلى بداهته فى نظم الشعر حيث يقول:

" وكان عين بصل فقيراً يهبه الناسُ قماشاً، وما يكلفونه معاشاً، وكان يلبس القطعة مدة، وإذا أفلس باعها ..... فلامه بعضُ الناس على هذا الاعتماد، وقال:

" هذا موجب لإن يسوء منهم فيك الاعتقاد، فأنشده ارتجالا وقال له: لا تمتلي مني ملالاً " :ثم أنشد:[19]

وقَائِلٍ قالَ إبراهيمُ عينُ بصل ... أَضْحَى يَبيعُ قِباً لِلناسِ بعد قُبَا [20]

وقال الصفدي أيضا:

"ولم يزل فى اكتسابه، وتعاطيه للشعر وانتسابه، وتوكله على بر الناس له واحتسابه، يخبط بين الحكياة والحكاية، وينقلب من الشكر إلى الشكاية." مشيرا إلى استمراره على النظم والإنشاد للأشعار.

ثم يستمر الصفدي قائلا : ومما ينسب إليه أيضا, قوله فى الشبكة والسّمك":

كَمْ كَبسنا بيتاً كي نمسك السِمـ ... كان منه فى سائر الأوقاتِ [21]

إلا أن الصفدي بقوله " قلت: وقد رأيتهما أيضا لغيره بأنها ليس له" [22]. وإننا بعد التحقيق والبحث عن هذيْن البيتين, لم نتوفق بالعثور عليها بأنهما لغيره.

وأيضا يقول الصفدي, بعد ما نقل عنه من شعره هذين القطعتين:

"إنما أثبت هاتين القطعتين, لأنهما من هذا العامي طبقة بالنسبة إليه, على ما فى شعره من اللحن, وهو شعر مقبول, ليس هو الذروة ولا قريباً منها" [23]

وإن الصفدي أيضا, بعد ما يورد لـ "عين بصل " قصيدة فى عشرين بيتا, يحكم على شعره بقوله:

"وشعره كله من هذه النسبة, كما تراه غير متلاحم النسج, ولا مستقيم النهج"[24]

وهذا اضطراب وتعاكس, بفعل وأقوال الصفدي, فى الحكم على شعر عين بصل. وهنا, حيث أشار بعض الكتاب المعاصرين, إلى هذا التصرف المشكوك الوارد عن الصفدي. إذ قال:

[18] انظر باقي: الأبيات الصفدي,أعيان,ج 1 ص17.
[19] الصفدي,أعيان,ج 1 ص 17,الصفدي,الوافي, ج1 ص47.
[20] الصفدي,الوافي, ج1 ص 47.
[21] الصفدي,أعيان, ج 1 ص 17.
[22] الصفدي,أعيان, ج 1 ص 17.
[23] الصفدي,الوافي, ج1ص47.
[24] لصفدي,أعيان,ج 1/ص18.

" وإن الصفدي فى اتباع هذا الأسلوب يصيب الباحث الجاد بالملل, بسبب عدم وجود ما يحكمه على قراءة مالا ينفعه من النثر المسجوع, و شعر الرثاء والمدح. فمثلا، عند "ترجمة إبراهيم بن علي بن خليل الحراني المعروف بعين البصل" يقول: «ومن شعره الذي نسب اليه قوله . . .» ثم يورد قصيدة فى عشرين بيتا، ثم يعلق على ذلك بقوله:«قلت:وشعره كله من هذه النسبة كما تراه غير متلاحم النسج, ولا مستقيم النهج»" [25].

ولدى مؤلف أعيان العصر. أن" شعره مقبول، غير أنه لا يخلو من اللحن".

وقال صاحب فوات الوفيات: " وشعره مقبول ,غير أنه لا يخلو من اللحن" [26]

وقال ابن تغري بردي :"كان عاميا مطبوعا" [27]

وتحدث عنه ابن تغري بردي أيضا, بأنه شاعر معروف, وأنه كان يكتسب بالشعر, وأن له شعرا كثيرا.[28]

فأما ابن حجر فيقول عنه :" كان أميا عاميا ولكنه لطيف النظم "[29]

وقال ابن حجر عنه أيضا : "الأديب أبو إسحاق".[30]

وقال الزركشي :"شعره مقبول, إلا أنه لا يخلو من اللحن"[31]

وإن هذه هي خلاصة القول فى " شعر عين بصل" الذي نقلته المصادر لنا. وهذا يظهر بأن للشاعر عين بصل مكانة بين أقرانه من الأعيان, وقيمة أدبية لدى الأدباء والشعراء المعاصرين له, مع تضارب الأقوال فى الحكم على شعره.

د ـ أشعاره

إن أشعار عين بصل التي عثرنا عليها فى المصادر التي ذكرت سيرته سبعة, فمنها القصيدة التامة, ومنها ما لا يتعدى البيتين. وسنتناول شرح هذه القصائد والأبيات:

القصيدة الاولى

إننا نراى للشاعر فى هذه القصيدة التالية, أوصافا مختلفة لمواقع وحالات شتى, فإنه يبدأ بأبيات, يشرح فيها الحالة التي هو يعيشها, موضحا لنا, بأن مرد السُّقم والمرض الذي أصاب جسمه, هو من جراء جفون رِيمٍ رَمَى قلبه بألحاظه, ويضيف بأن جسمه ليس هو وحده المريض فقط, بل قلبه كذلكَ مجروحا. وأن هذا الريم قد

[25] جويا جهانبخش, نقد كتاب أعيان العصر و أعوان النصر, عن مجلة «آينه پژوهش» ع 5 س 7.
[26] الكتبي,ج1 ص 38.
[27] ابن تغري بردي,الدليل الشافي,ج1 ص22.
[28] ابن تغري بردي,الدليل الشافي,ج1 ص22.
[29] العسقلاني,الدرر,ج1 ص47.
[30] ابن تغري بردي,الدليل الشافي,ج1/ص22.
[31] الزركشي,عقود,ص 17.

رَمَى قلبه بأسهم لحاظه, وأنه كلما نظر بطرفى عينيه, نفذت تلك السهام فى قلبه. ثم يأتي بوصف رائع لهذا الريم الذي رمى قلبه بالحاظه, وأسقم جسمه بجفونه. فيقول بأنه ريم معتدل القامة, كعود الخيزران. وأنه كامل الأوصاف فى الحسن والجسم والرشاقة. وأنه مُهَفْهَف مخموص البطن دقيق الخصر. وأنه مع هذه الأوصاف الرائعة, له جفاء مر يؤلمه ويعذبه بجفائه وترك الصلة وبالابتعاد عنه.

وكان المفروض حسب تمني الشاعر, أن يقوم هذا الريمُ بوصاله. ومع هذا نراى الشاعر, يستمر بوصف هذا الريم, ويبين بأنه معسول اللمى, ذو سُمرة فى الشَفَة تزيد من حسنه وجماله وحلاوته. وهي قصيدة طويلة من الكامل:.

جِسْمِي بِسُقمِ جُفونِهِ قدْ أسقما[32] . ريمٌ بِسَهْمِ لِحاظِهِ قَلبي رَمَى [33]

كَالرُّمْحِ مُعْتدلُ القوامِ مُهفهفٌ [34] مُرُّ الجفا لكنّهُ حُلوَ اللُمى [35]

ويستمر الشاعر, بعد ما يُعَبِّر عنه, بأنه يشبه الضبي موضحا مشتكيا, من أنه قد أحل دمه, مع أن إراقة دمه حرام. ثم يبين, بأن ابتعاد هذا الضبي عنه, وعن اللقاء به, وقطع الوصال, مشيرا, إلى أنه قد أعد هذا اللقاء محرما, مع أنه حلال لا بأس به, فى نظر الشاعر.

ثم ينتقل إلى وصف آخر, موضحا, بأن السعادة فى الالتقاء به وبرؤية جماله. فإن جنة الشاعر وناره ملتزمة بهذا الجمال. فهو يلاقى جنةً إذا التقى بهذ الجمال, ونال هذا الوصال, وإنْ وقع الجفاء والصدود, وحصل الامتناع من هذا الضبي, ولم يتحق الوصال, فإن الشاعر يعد نفسه فى نار وجحيم.

ثم يصف لنا الشاعر, بأن حبيبته, ساجية فاتِرَة الطرف. وقد زاد هذا الفتور منها بالطرف حسنا وجمالا. وقد أبرزت تلك الوجنات الوردية, وزادت فى حسنها وجمالها, فهي غضيضة الطرف سوجاء.

رَشأ أحلَّ دَمِي الحَرامَ وقدْ رَاى[36] فى شَرْعْهِ وصلي الحلالَ مُحرّما[37]

ربّ الجمال بِوصلِهِ وبهَجْرِهِ أَلْفَى وِصالَهُ جنةً وجَهَنَّمَا [38]

عَنُ وَرْدِ وجْنَتِهِ بآسٍ عِذارهُ [39] وبسيفِ نرجسٍ طَرْفُهُ السَّاجِي حُمى[40]

---

[32] ابن تغري بردي,الدليل: جفني .

[33] الزركشي,عقود: دمى؛ ابن تغري بردي,الدليل:رما.

[34] ومُهَفْهَف: يقال للجارية الهَيْفاء: مُهَفَّفَةٌ ومُهَفْهَفَةٌ وهي الخَمِيصةُ البطنِ الدقيقة الخَصْر،لسان العرب.

[35] في الصفدي,الوافي؛ وابن تغري بردي,الدليل؛ والزركشي: اللما. ومعنى اللمى: الجفاءُ ويقصر ويمدُّ وهو: نقيض الصِّلة. والجَفوةُ: ترك الصِّلة من الجَفاء. و أيضا يقال حلو اللمى ومعسول اللمى, وقيل سُمرة في الشَفَة تُستحسَن. ورجلٌ ألْمى وجاريةٌ لَمْياءُ بيِّنة اللَمى.

[36] الزركشي: دمي الحلال. ومعنى الرشأ: هو الظبي إذا قَوِيَ وتَحرّك ومشَى مع أُمِّه، والجمع أرشاء.

[37] الصفدي,أعيان؛ ابن تغري بردي, الدليل: الوصل.

[38] الصفدي,الوافي؛ والكتبي: لقّى ؛ الصفدي,الوافي: ألقى؛ ابن تغري بردي,الدليل: ألفى وصالَه جنةً وجحيما.

[39] ابن تغري بردي,أعيان؛ و ابن تغري بردي,الدليل: وآس. ومعنى آس هو القاسي الذي لا يرحم,

[40] ابن تغري بردي,الدليل: وآس , حما؛ الزركشي,عقود: حما. ومعنى الساجي: يقال امرأةٌ ساجِيةٌ اي فاتِرَة الطَّرْفِ. عينٌ ساجيةٌ أي فاتِرَةُ النظر، حالة تستحسن في النساء وامرأةٌ سَجْواءُ الطَرْفِ وساجيةُ الطرف أي فاترة الطَرفِ ساكِنَته. ويقال: طرْفٌ ساجٍ أي ساكِنٌ.

وينتقل بنا الشاعر, إلى أوصاف أخرى لحبيبته التي هي كالضبي, مبينا لنا, بأنه قد عاتبها على هذا الجفاء وقطع الوصال, فلم يلق منها إلا القساوة والشدة. فيصرح الشاعر, بأنه قد وفَىّ ما عليه, وأتى بجميع مواعده التي وعدها إياها, إلا أنه لم يجد ما يقابل هذ الوفاء, إلا بالخيانة منها. ويقصد به, عدم الإفاء بالموعد.

ويستمر الشاعر, فى ايضاح المناسبة, والعشرة التي بينه وبين هذا الضبي, بأنه, كل ما قربه, ابتعد عنه ونأى. ويتمادى بالشاعر الشوق, ويزيد إلى لقاء الحبيبة, فيوضح لنا حالته, مع هذا الضبي, بأنه كل ما بكى من شدة هذا الجفاء والخيانة والقسوة التي لقيها. وقد ساقه الشجى إلى البكى فلم يلقَ منه إلا التبسم. كأنه يتلذذ من تألم وبكاء الشاعر بابتسامتهِ. وهذه هي حالة مؤلمة بين العاشقين. إلا أنها حالة حلوة, لذيذة, لا يعرفها إلا من ذاقها. وكذلك فيها ازدياد فى الرغبة, والشوق, للعاشق والمعشوق. لأنها حالة حلوة ومرة, فى آن واحد, لذيذة ومؤلمة. كأن لذتها فى إيلامها, كما قيل:"ومن الحب ما قتل".

ويستمر الشاعر, بأنه قد سلم قلبه لهذا الضبي, وحكمه فيه, إلى أن رَقَّ قلبه, فصار يتأثر من أدنى سبب, إلا أن هذا الضبي لم يرحمه, فظلمه بعد ما تحكم فيه. وهنا, يبدو بأن الشاعر ذو خبرة وعلم, بالحالة التي يعيشها, وبالعشرة التي بينه وبين هذا الضبي:

عاتبتُه فقسا، وَفَّيْتُ فَخَانَنِي قَرَبْتُهُ فَنَأى، بكَيْتُ فَتَبَسَّمَا [41]

حَكّمتُه فى مُهْجَتِي وحَشاشَتِي[42]... **فجَنى وجَارَ عَلَيَّ حِينَ تَحكَّمَا**[43]

والعجب كل العجب, من هذه الحالة. فإن الشاعر, بعد إيراد هذه الشكاية, وما به من الآلام, وما لقي من جفاء وصدود من الحبيبة, فإنه قد تناول وصفا آخرًا, لحسن وجمال هذا الضبي, وقَدِّه الحلو. مبينا, بأنه فاق الغصون, وزاد بحسنه وجماله, على بدر السماء.

ثم أن الشاعر, عاد مخاطبا حبيبته التي شبهها بالضبي, طالبا منها الرفق, وأن ذلك الجمال, قد جعله حليف الصابة والغرام, وسيره متيمما. إذ يقول:

يَا ذَا الذي فاقَ الغُصونِ بقدِّهِ وَسَماَ بطلعتِهِ عَلَى قَمَرِ السّمَا

رِفْقاً بمنْ لَولاَ جَمَالُك لَمْ يَكنْ حِلْفُ الصبابةِ والغرامِ مُتيَّماً [44]

[41] في الكتبي؛ والصفدي,الوافي؛ والصفدي,أعيان؛ و ابن تغري بردي,الدليل: تبسما

[42] المُهْجة: دمُ القَلْب، ولا بقاء للنَّفْس بعدما تُراق مُهْجتها، والأَمْهُجانُ: الرقيق من اللَّبن ما لم يتغَيّر طعمُهُ.

[43] ابن تغري بردي,الدليل؛ الزركشي,عقود : جنا , فجف. والى هنا الأبيات مشتركة مع سائر المصادر وكذلك مع تغري برد,الدليل؛ والصفدي,الوافي.

[44] الصبابة:الحب الشديد. والشوق: رقّتُه أو حرارتُه؛ المُتَيَّمُ: المفتون.

ثم يتجه الشاعر, مرة ثانية إلى حبيبته ويذكرها, بتلك الأيام التي مضت, والليالي التي أسلفت, والعشرة التي فى تلك الظلمة تحققت, لعلها ترحمه وتترأف به. فيخاطبها ويذكرها بذلك, كأنه يقول لها:

" ألم يكون لنا لقاء واجتماع؟ وما كنا نفترق, الا بمجيئ الصبح الذي يقطع تلك العشرة, وينقض علينا ذالك اللقاء والالتقاء. وما كان يصرم هذا اللقاء, إلا جلو الصباح وانفصال الليل, فنضطر إلى الافتراق".

وبعدها ينتقل الشاعر, إلى الحالة التي هو وحبيبته فيها. ويخاطبها مذكرا لها تلك الحالة التي كانا فيها, وأنهما كيف كانا لا يخافان صرف الزمان, وما سيأتي به من تصرفات, وأنهما ما كانا يُباليان بتحذير محذر, ولا بلومة لائم. وأنهما ما كان يخشيان, إلا من العين التي تراقبهما فقط.

ثم يستمرالشاعر, ببيان تلك الحالة, وبأنهما كانا يعيشان فى رغد العيش والسعة والخصب. وأنهما لما كان فى تلك الحالة, كانت عيون الحُسد نائمة, فلا يحسدهما على تلك العيشة والعشرة أحد. وبأن عين الفِراق والبين قد طمستْ, وكحلت بالعمى. فما كانت تراهما:

أنَسِيتَ أيّاماً مَضَتْ ولَيالِيَا سَلَفَتْ وعَيشاً بالصّريمِ تَصَرَّما [45]

إذْ نَحْنُ لَمْ نَخْشَ الرَّقِيبَ وَلَمْ نخفْ صَرْفَ الزَّمانِ وَلاَ نُطيعُ اللُّوَماَ [46]

العَيْشُ غَضٌّ والحَواَسِدُ نُوّمٌ [47]... **عَنَّا وعَيْنُ البَيْنِ قَدْ كُحِّلَتْ عُمى** [48]

ويستمر الشاعر, وينتقل بنا إلى وصف مكان الالتقاء, مع حبيبته في تلك الروضة التي كانا يجتمعان فيها. فيصف لنا, زهورها التي تفتحت ثغورها, عندما جاءت تلك المزن, فهطلت السماء وأمطرت.

وما أروع هذا التشبيه من هذا الشاعر العامي, فأنظر إلى هذا الوصف. فكيف جعل للزهور ثغورا. وشبه المطر بالبكاء, وانفتاح ثغور تلك الزهور بعد هطول المطر بالتبسم.

ثم نراى الشاعر, ينتقل إلى وصف آخر, وهو وصف الأشجار فى الربيع بعد نزول المطر, ووصف الخمائل وأوراق الأشجار وأغصانها, وكيف أصبحت كالقطيفة والخميلة. فإنها أشجار مجتمعة كثيرة ملتفة بحيث لا يرى فيها شيئا. فهي كالخمائل الخضراء.

[45] الصريم:الليل المظلم والصريم أيضا الصبح وهو من الأضداد والصريم أيضا المقطوع وهنا يقصد به الليل.
[46] الصفدي,أعيان:لا نخشى و لا نخاف. والوافي: لا نخشى, والبين:الفرقة . و ذات البين ما بين القوم من القرابة و الصلة والمودة أو العداوة و البغضاء و غراب البين يتشاءم به لأنه نذير الفرقة.
[47] والعيش غضٌ :رغد العيش و سعته الغضارة ويقصد به سعة العيش والنعمة والخصب والنضارة.
[48] الصفدي,أعيان: عما.

ويستمر الشاعر, بالوصف للربيع بأن الأقاحي التي تشبه الأسنان البيض المتلألأة لجارية معتدلة القامة والقد. فكيف يصير العاشق بين تلك الأقاحي مغرما حزينا مغتما.

ثم يستمر بالوصف ويتناول نرجس تلك الروضة ويجري عليه تبيانا رائعا بليغا للغاية, حيث شبه عيون النرجس بعيون المرأة الناعمة اللينة ولواحظها التي تديم النظر فى سكونِ طرفٍ وتطيل التأمل فيه. وهنا نراى أن الشاعر, كيف قد رَناَ وسكن الى هذا الطرف لحسنه مع رميه بالسهام الى قلبه.

ثم يتناول جنسا آخرا من الزهور الموجودة فى مكان اللقاء بالحبيبة. وهو الزَّهْرُ المنثور الذي قد انتشر فى تلك الروضة, وتناثر عندما راى أن براعم الغصون تفتحت على الأغصان كورد منظم. وفيه إشارة إلى الجمال والعطر كما نراه:

فِى رَوْضَةٍ أَبْدَتْ ثُغُورُ زُهُورِهَا [49] ... لمّا بَكى فِيهَا الغَمامُ تَبَسَّمَا [50]

مَدَّ الربيعُ عَلَى الخَمائِلِ نُورَهُ[51] ... فِيهَا فَأَصْبَحَ كَالخِيَامِ مُخَيَّمَا

تَبْدُو الأقَاحِي مِثْلَ ثَغْرٍ مُهَفْهَفٍ [52] ... أَضْحَى المُحِبُّ بِهِ كَئِيباً مُغْرَمَا [53]

وعُيُونُ نَرجِسها كَأَعْيانِ غَادةٍ[54] ... تَرنو فَتَرمي باللواحظِ أسهما

وَكَذَلِكَ المَنْثورُ مَنثورٌ بِهَا [55] ... لمَّا رَأى وَرْدَ الغُصُونِ مُنَظَّمَا [56]

ثم لا يتوقف الشاعر, عند هذا الحد من الوصف, فيصف طيور ذلك الملتقى, فيتناول طيور الحمام التي تطرب بين أغصان تلك الروضة, فى وقت السحر, فيستيقظ على هديل الحمام, فى ذلك السحر, كل من كان نائما.

ثم ينتقل الشاعر بنا, ولا نتمالك أن ننتقل معه لنشاركه, فى تلك الجلسة التي تكونت من فِتْيةٍ وشباب, عَدُّوا السرور, والفرح بهذه الجلسة, مكسبا ومغنما من العمر, حيث الساقي فيها, هو الحبيب الذي يدير الكأس, فى راحته, لشاربه ومتناولها:

وَالطَّيْرُ يَصْدَحُ فِى فُرُوعِ غُصُونِهَا[57]... سَحَرًا فَيُوقِظُ بالْهَدِيلِ النُّوَّمَا [58]

[49] الثغر: الفم والثغور الافواه.
[50] الصفدي,الوافي: وبها الغمام.
[51] الخمائل و القطيفة و الشجر المجتمع الكثير الملتف الذي لا يرى فيه الشيء إذا وقع في وسطه و كل موضع كثر فيه الشجر و الأرض السهلة الطيبة يشبه نبتها خمل القطيفة , والجمع: خمائل.
[52] الأقاحي: نبات منه البابونج و كثر في الأدب العربي تشبيه الأسنان بالأبيض منه يأتي على أقاح و أقاحي.
[53] الصفدي,الوافي: كئيبا. والمعنى: مكتئب,حزين, مغتم,منقبض. ومعنى مهفهف: الضامر البطن الدقيق الخصر وهي مهفهفة.
[54] لفأعيان غادة: عيون إمرأة ناعمة لينة وشجرة غضة. وقد جمع الشاعر كلمة "عين" على أعيان.
[55] والمنثور: جنس زهر ذي رائحة ذكية يكثر في مصر. واحدته منثورة وأنت منثورة فيك الجمال والعطر.
[56] هذا البيت زيادة من الصفدي,الوافي, ج1 ص 47.
[57] يصدح:الطائر صدحا و صداحا رفع صوته فأطرب . و يقال صدحت المغنية و صدح المزهر فهو صادح و صداح و هي صادحة.
[58] الهديل: صوت الحمام وذكر الحمام الوحشي. الصفدي,الوافي: تصدح؛ الكتبي: صطحا.

ثم يتدرج الشاعر, ويتناول وصف الساقي, ويبين, بأن السقاة أكثر من واحد, فى هذا المجلس, فيزيل الشبهة, ولم يبق أي إلتباس, من أن لكل جليس, فى هذه الجلسة ساقياً يدير الكأس, فى راحته لشاربه, ويقدمها للمستقي المعين لا لغيره.

وجاد الشاعر, وتفضل بتقدير التشبيه لجميع السقاة, حيث شبه الجميع بالبدور, ووصف الكؤوس بلمعانها, وتلألأها بالشموس. ووصف كل من كان فى هذا المجلس بالنجوم التي بين الشمس و البدر. وبأن هذه الحالة للنجوم, حالة نادرة لا تتفق للنجوم, إلا عند وقت طلوع الشمس, و حِينَ البزوغ, فى منتصف الشهر, لمَّا يكون الهلال بدرا.

والـراحُ فى راحِ الحـبيـبِ يُديـرها [59] فى فِتـيـةٍ نَـظَـرُوا المَـسَـرَّةَ مَغْـنَـمـا

فَسُـقَاتُـــنـاَ تَحْـكـي البُـدُورَ، وَرَاحُنـاَ[60] تَحْكِي الشُّمُوسَ، ونَحْنُ نَحْكِي الأَنْجُما[61]

القصيدة الثانية

إن للشاعر, هذه القصيدة الطويلة. وهي من الخفيف. قد بدأ بذكر حالته التي هو فيها وبكاءه من جراء الفراق ومبينا بأن عينيه تهطل بالدموع الغزيرة, وأن حكايتها هي جريان وهطول الدموع منها بسبب الفراق.

وقد وضح الشاعر, بأن فؤاده من الفراق, وسبب الهجران فى حرارة شديدة. ثم نراه قد انتقل إلى تنبيه المستمع, أو خاطب نفسه وقلبه ناصحا, بأن لا يثق بشاب ليس له تجربة سابقة فى الحب. وقد أضاف بيانَ ذلك, بأن مواعيد الشاب الغشيم الذي لم يجرب الحياة, ما هي إلا غرور وخداع. وفى البيت إشارة إلى أن الشاعر, قد إنخدع بمواعد لم توف وتتحقق.

دَمْعُ عَيْنِي يَحــكِي الفِـراَقَ غَـزِيـــرُ ... وَمِنَ الهَجْرِ فِي الفُؤَادِ هَجِيرُ

لاَ تَـثِـقُ فِي الهَـوى بِعَهْـــدِ غَـريــرٍ[62] ... لَيْسَ وَعْدُ الغَرِيرِ إلاَّ غُرُورُ [63]

بِيَ مِـنَ الغَيَدِ أسْمَرُ قَـدْ حَكَـى الأسْـ [64] ... مَـرَ فِيهِ لِي الغَـرَامَ سَـمِيـرُ

ثم ينتقل الشاعر, إلى وصف حبيبته الغشيمة التي لم تفِ بوعد من وعودها, وبأنها سمراء ناعمة, وبأنه مغرم ومتعلق بها, بحيث لا يستطع التخلص من هذا

[59] الراح : الخمر. هنا راح: يقصد الشاعر بها: راحة اليد.
[60] هنا الراح الخمرة.
[61] الأبيات في: الصفدي,أعيان, ج 1 ص 18, الكتبي, ج 1 ص 37؛ الصفدي,الوافي, ج1 ص 47. ومعنى الأنجم: النجوم. يقال أنجمت السماء ظهرت نجومها.
[62] الغرير:الشاب لا تجربة له, والجمع: أغرة وأغراء.
[63] الغرور: الخداع.
[64] الغيد:النعومة وامرأة غيداء وغادة أي ناعمة و الأغيد الوسنان المائل العنق.

الغرام. وأن هذا الغرام في نفس الوقت, هو المسلي الوحيد له. وقد شبه المعشوق, بأنه قمر طالع على غصن الخيزراني الطري المستوي. وبأن ضوء هذا القمر الذي قد طلع على غصن البانِ, قد تغلب على عقله. فهو مَغلوب على أمره, ومُكره على أفعاله, ومضطهد من قبل نور هذا القمر.

قَــمَـرٌ طالِـعٌ عَلـى غُصْـنِ بانٍ [65] فِيهِ عَقْلي بِنُورِهِ مَقْمُورُ

ثم ينتقل الشاعر, الى طرف الحبيبة الذي تفرد وبقي وحده لخلو المكان الذي صار قَفرا. فأصبح بانفراده مؤنسا للقلب, إلا أن الشاعر, وقع بين حالتين, حالة الخوف, وحالة الشكر. وهو ينظر إلى حبيبته بعين الشَّك. هل ستنظر إليه أم لا ؟ فإنه يتردد بين الحالتين. فمرة يشك فى لحاظ نفسه, مع التردد, ومرة ثانية نراه يشكرها على تلك الألحاظ التي تراقبه.

ثم يبين, بأنه قد وقع بين جنة وسعير. فهو فى جنة, من حيث أن له نصيبا من هذا الحسن البديع للحبيبة, وأما من حيث طول التجني للحبيبة, فهو واقع فى سعير.

ويصف لنا الشاعر, بأن حبيبته, كذلك لا صبر لها على الفراق. فهي ذو اطلاع كثير. فإنها بين الحين والآخر, تظهر وتطلع إليه ليراها. وكل ما طلعت بهذا القصد, فإن قلب الشاعر, يكاد يطير بهذه الطلعات فرحا وسرورا. ثم يتمادى ويبالغ فى الوصف للحبيبة. واصفا بأنها, لو طلعت وبدت فى جنة عَدنٍ, لثارت نفوس ولِدان تلك الجنة, وتحير الحور العين من ذلك الجمال, لإبدائ زينتها ومحاسنها:

232| db

أَوْحَشَ الطَّرْفُ إذْ غَدَا مُؤْنِسُ القَلْـ[66]ـبِ وطَرْفى شَكٌّ وقَلبي شَكُورُ [67]

لِـي مَـنْ حُسْنِـهِ البَدِيـعُ وَمِنْ طُو ... لِ تَـجَنِّـيـهِ جَنَّـةٌ وسَـعِـيـرُ [68]

ذُو مَـحْـيـاَ لِـنـاَظِـرِي وقَـلْـبِـي [69] ... مِنْـهُ فِي الحُـبِّ نَظْرَةٌ وَسُرُورُ

لَـوْ بَـداَ طـاَلِـعـاً بِـجَـنَّـةِ عَـدْنٍ ... غـارَ وِلْـدَانُـها وَحـارَ الحُـورُ [70]

وإن الشاعر, بعدما يصف حبيبته بتلك الأوصاف التي تقدمت, فإنه يتناول صعوبة وعسر السلوى التي يلاقيها فؤاده بدون ذاك الجمال. فيوضح مبينا, بأن الرضى والتسلي بغيرها, يصعب عليه فكأنما صار الموت أهون وأيسر من تلك الحالة.

[65] البان: كل عود لين. وهو من جنس نباتات الفصيلة النجيلية لين القضبان أملس العيدان و منه أنواع كثيرة, . يقال كأن قدها غصن بأن أو قصب خيزران.

[66] أوحش: فلان جاع ونفد زاده والمكان صار قفرا وخلا من الناس وكثر فيه الوحش وفلانا جعله يستوحش والمكان وجده خاليا فهو موحش. غدا:صار.

[67] شكٌّ : بمعنى شاك.

[68] تجنى: عليه جانى عليه و يقال تجنى عليه جناية.

[69] المحيا :كثير الطلوع أو التطلع.

[70] غار: الرجل على المرأة وهي عليه غيرة ثارت نفسه لإبدائها زينتها ومحاسنها لغيره أو لانصرافها عنه إلى آخر وثارت نفسها لمثل ذلك منه فهو غيران.

وقد يبين الشاعر, هنا بأن صبره فى نفاد, ولا يستطيع أن يتحمل هذا الحزن, مع الحب الكثير للحبيبة, وهواها الزائد.

وإن الشاعر, بعد ما يزيد فى بيان أوصاف المعشوقة وأحولها وحسنها, فإنه يبدأ بشرح نوع حبه ويعتذر لِلائِمهِ وعاذلهِ, بأن حبه من نوع الحب العفيف العذري. ويعلل ذلك, بأن العاشق لا لَوْمَ عليه, فى حبه ووصفه للحبيب, لأنه معذور. ثم يصف لنا حالته, وما هو به من وجْد فيقول, بأنه قد فَقَدَ النوم مذ هجرته حبيبته. فصار فى الهوى, والحب تارك و متروك, وهاجر ومهجور.

ثم يبين, بأنه متيم متبول, قد أسَرَتْهُ زلوف الحبيبة وشعرها الظاهر والنازل على الجانبين من وجهها.

ولم يكتف الشاعر, بإيراد سبب واحد, فنراه يزيد فى ذلك, ويبين لنا الأسباب الباقية لأسره بهذ الحب, حيث يشير إلى سبب آخر, وهي تلك النحور. وقد عبر عن نحر الحبيبة بالنحور, مع أن للحبيبة نحرا واحدا, وذلك, لأنه راى منها نحرها من جهات مختلفة. فمرة من هذه الجهة, ومرة أخرى من الجهة الثانية لنحرها.

فعبر الشاعر, كأن لها نحورا كثيرة, وليس نحرا واحدا. وقد بالغ الشاعر هنا فى التعبير. ثم عدَّ نفسه منهزما, بين تفضل الحبيبة التي عطفت عليه, وقد رحمته بالحضور, وبالتطلع لإبداء وإظهار نحرها, وزلوفها له .حيث يقول:

فَـعَسِيـرٌ عَـنْـهُ سَلْـوى فُـوَّادي[71] ... إنَّما المَوْتُ فِي رِضاَهُ يَسِيرُ

وطَـلِـيـقٌ عَلَيْـهِ دَمْـعُ شُـؤُونِـي ... إنَّما القَلْبُ فِي يَـدِهِ أَسِيـرُ

وقَـلِيـلٌ عَلَـىَّ تَـمادِيـهِ صَبْـرِي [72] ... إنَّما الوَجْدُ فِي هَـواَهُ كَثِيرُ [73]

ثم يتجه الشاعر إلى حبيبته, ويخاطبها كأنها حاضرة عنده. فيقول لها:

"أنا العاشق المعذب بالهيام, وليس لي غير حبك وهواك من يعطف عليَّ. وإن الذين قد عرفوا, وعلموا مني هذه الحالة, لم يرحموني وينصروني". وهو يبين ذلك:

يا حَبيبي كُـنْ عاَذِرَ العاَشِـقِ العَـذْ ... رِيِّ فَالصَّبُ فِي الهَـوى مَعْـذُورُ [74]

هَجَرَ النومَ مُـذْ هَجَـرَتْ فأضحـى ... وَهوَ فِي الحُـبِّ هاجِرٌ ومَهْجُورُ

أَسَرَتْـهُ سَـوَالِـفُ ونـحـورٌ [75] ... وغَـزَتْـهُ مَعاَطِـفُ وخُـصُـورُ [76]

[71] العسير: الصعب كان صعبا عُسرا.
[72] التمادي: في الأمر بلغ فيه الغاية ويقال تمادى في غيه ولج, ودام عليه و به الأمر تطاول وتأخر.
[73] الوجد: الحزن.
[74] الحب العذري: يقال هوى عذري عفيف نسبة إلى بني عذرة لاشتهارهم به.
[75] السوالف: هنا بمعنى شعر الرأس المواجه للأذنين. النحور:مبالغة في الناحر.
[76] المعاطف ج المُعْطِف: الحسن الخلق العطوف على الناس بفضله والذي يحمي المنهزمين. و الخصر : وَسَطُ الإنسان، وجمعه خُصُور.

فـهـو صَبٌّ مُـعَـذَّبٌ مُسـتَـهـامٌ [77] ... مَا لَـهُ فِي هَواكِ يَـوْماً نَصيـرُ [78]

القصيدة الثالثة

وإن هذه القصيدة تكونت من سبعة وعشرين بيتا, قد ذكرتها المصادر للشاعر. وقد بدأ الشاعر بذكر الربوع للحصن التي كان يجلس فيها, هو وأصحابه بقصد الشرب, واتخذوا ربوع هذا الحصن مكانا بغاية إقامة مجلس الشرب فيه.

ثم يصف لنا الشاعر, هذا المجلس والندماء الذين عقدوه بأنهم فى جلسة سرور, بحيث لا يمسهم فيه الندم, ولم يقترب الحزن من أحد الندماء على هذه الجلسة وما يجري فيها.

ويبين الشاعر, أن له بُغية وأمل يرجو تحقيقه مع الحبيبة فى هذا المكان. وما حضر إلى هذا المجلس إلا لينال أمنيته منها فيه.

ثم يصرح الشاعر, فى الشطر الثاني للبيت بمكان وموقع تلك الجلسة, بأنه باب دمشق المسمى " جَيْرُونَ " وأن حبيبته جارة له فيه, كما وضح ذلك وهي من المضارع[79]:

رُبـُـوعُ جُـلّـــقٍ لِـلأوْطــاَرِ أوْطــاَنُ [80] وَلَيْسَ فيها مِنَ النَّـــدَمانِ نَـــدْمَانُ

كـــمْ لِي مَـــعَ الحُـــبِّ فِي أقْـطاَرِهاَ أرَباً [81] إذْ نَحْنُ فِي سَاحَتيْ جَيْرُونَ جِيراَنُ [82]

234| db

ثم يتناول الشاعر, ما نال من سرور, وفرح فى تلك الأيام والجلسات, بحيث, أن أذيال ملابسه, كانت تطير فرحا وسرورا, وأنه قد نال نصيبا من الحظ هنالك. فهو سعيد محظوظ, بما منحه ذلك السعد, فصار بعد ما غزت ألحاظ غزلان جيرون كبده. فبات ينشد الغزلَ لغزلانه. ثم يترحم, على كل من كان سببا لاجتماع هذا المجلس, فمكنه من رؤية الجميلات الحسنوات مائلات العنق اللواتي ظهرن كألاقمار والأغصان فى ذلك المجلس:

أَيَّامَ تَجْـرِيـــرُ أَذْيالِـــي بِـــهـاَ طَـرَبـــاً وَلِي مَكاَنٌ لَهُ فِي السَّـعْدِ إمْـكـاَنُ [83]

إذْ بِـــتُّ أنْشُـدُ فـي غُـــزْلانِـــها غَزَلاً ... لَمَّا غَزَتْ كَبْدي بِاللَّحْظِ غُزْلاَنُ

سُقْـياً لِـجاَمِعِهاَ كَـمْ قَـــدْ جَـمَعْـنَ لَـنا فيــهِ مِنَ الغِيدِ أَقْمارٌ وأغـصانُ [84]

وفى الأبيات التالية نراه, يسمي لنا المكان الذي تحقق ذلك اللقاء فيه, بأنه " بَابُ الْبَرِيدِ". فيوضح ما قد حوى له, ولأصحابه من الحسناوات اللواتي يرجو

[77] الصب:العاشق.
[78] الصفدي,الوافي, ج1 ص46 47.
[79] القصيدة تفرد بذكرها الكتبي ,ج 1 ص 37.
[80] جلق: الحصن و نحوه. أوطار جمع وطر. والوطر: الغاية والهدف.
[81] الأرب: الحاجة او الحاجة الشديدة والارب البغية والامنية يقال: بلغ اربه ونال اربه.
[82] جَيْرُونَ: باب في دمشق.
[83] السعد: اليمن.
[84] الغيد: بفتحتين النعومة وامرأة غيداء وغادة أي ناعمة و الأغيد الوسنان المائل العنق.

الشاعر منهن الإحسان والتفضل, فالظاهر هنا' أن الشاعر متردد فى نيل ذلك الإحسان. وأن السُّمُرَ فى هذا المكان بتفننهن بالمشي, واهتزازهن حين الخطى والتمايل يمينا و شمالا, قد أَغْنَيْنَهُ بهذا التبختر بالمشي, عن الشرب والسَّمْر.

و بعد ما وصف الشاعر السُّمُر الناعمات, وتبخترهن بتلك المشية, تناول سواد أجفان تلك السمر, وبين بأن سواد أجفانهن لنساء البيض أجفان, وذلك من وسعهن وكبرهن:

وَكَمْ حَوى الحُسْـــنُ فــي بابِ البَرِيدِ لَـنـاَ ... فَهَلْ تَرَى عِنْدَ ذاَكَ الْحُسنِ إِحْسَانُ

أَغْنتْ عَنِ السَّمْرِ فيهِ السُّمرُ إِذْ خَطَرَتْ[85] ... وسُــودُ أَجْـفاَنِــهاَ لِلْبِيـضِ أَجْـفاَنُ

ثم يستمر, ويصف لنا, بأنهن كالأهلّةٌ, تحــت الظلام يَظِنُنَهُ. وقد شبه هنا الوجه بالأهلة, والشَّعْر بالليل. فإنهن يَحْمِلْنَ هذا الحسن والجمال, وتلك القضبان والكثبان لشباب وفتية, قد إغتروا وإفتتنوا بالحب. وقد شبه كل ما إحدودب من أبدانهن, من أعجاز ونُهود, بالكثيب والقضبان والتِّلال من الرَّمال.

كأن الشاعر يقول: هذا هو جمالها. ويوضح حال "أخ الأشْواقِ" المتيم حِيالَ هذا الجمال الرائع, لمَّا بدت وبرزت إليه بهذا الجمال, فوقع فى حبها. فصار بذلك الجمال الفتَّان هو المفتون.

ثم الشاعر راح يؤكد, بأن بعد ما عرفها, ورأى هذا الجمال منها, فلا يحلو غيرها فى عينه يوما من الأيام الآتية, مهما تغيرت الأحوال, ومهما طال الزمن.

ثم ينتقل الشاعر, بنا مشيرا إلى الفراق الذي وقع بينه وبين تلك الحبيبة التي لا يراى بعدها أحسن وأجمل منها. فيجعل الحمام تبكي على هذا الفراق الذي وقع بينه وبين حبيبته, كأنه يقول:

" عندما صار ذلك المكان غليظا, خَشْنًا, لا راحة فيه, من جراء ذلك الفراق الذي وقع بينه وبين حبيبته. فإن الحمام الذي شاهد ذلك الجمال, والحب بينه وبينها فى نواحي وأطراف ذلك القصر. قد ساده الحزن, وراح ينوح, ويبكي, ترحما عليه. لإن حبيبته سمراء ذات جمال حلو".

فأنظر إلى هذا الوصف العجيب للشاعر:

أهلّةٌ تَحْــتَ لَيْــلِ الشَّعْــرِ تَحْمِلُــــها[86]... لِفِتْنَــةِ الصَّــبِّ قُضْــبانُ وَكُـثْبانُ [87]

جَماَلَهاَ وأَخُو الأَشْـوَاقِ حِيــنَ بَــــدَتْ إليــهِ فِي الحُــبِّ مَفْتُــونٌ وَفَـتَّانُ

وبَعْدَهاَ لَيْسَ يَحْلُــو فِي الْهَـوى أبَــداً يَوْماً لِإنسانِهِ فِي الخَـلْـقِ إنْسَانُ [88]

[85] خَطرَتْ :خطرت في مشيتها خطرا و خطرا اهتزت و تبخترت و بذنبها رفعته مرة و خفضته أخرى أو حركته يمينا و شمالا. والرجل خاطروالجمع خواطر.

[86] يقصد بـ"ليــلِ الشَّعرِ " به الليل المظلم .

[87] قضبان: كلُّ نَبْتٍ من الأغصان يُقْضَبُ، والجمع قُضُبٌ وقُضْبٌ،وقُضبانٌ وقِضْبانٌ والكَثِيبُ من الرمل: القِطْعةُ تَنْقادُ مُحْدَوْدِبةً. وقيل: هو ما اجتمع واحْدَوْدَبَ، والجمع: أَكْثِبةٌ وكُثُبٌ وهي تلالُ الرمل.

نَــوَاحُــهُ فِي نَواحِـــي جُلَّــقٍ وَلَــهُ[89] بالحُسْنِ لاَ بالنُّقَا والحُزْنُ أحْزَانُ[90]

ثم يعود إلى وصف القصور, ويقول بأن "جُلَّقَ" فيها تلك الحصون, مثل القصور, وأنها بقصورها وحصونها, هي جنة ملأت بالحور والولدان.

ثم يصف لنا الشاعر الإزدحام لأيام الأسبوع, مشيرا إلى خروج النساء الغِيد, بالملابس الفاخرة بكثرة, فى صباح يوم السبت. فيصير يوم السبت مثل العـيـد, والنساء فيه كالغُزلانِ, تمكن الحظيظ الصائد فرصا فى ذلك الميدان والبستان الذي حوى تلك الغزان.

ثم يتناول الشاعر, تلك النظرات, وذلك الطرف واصفاً بأنه نظيف نزيه طاهر, كحالة الفرح, لا تُشيبه شائِبة. ثم يبين كذلك, بأن قلبه نقيا نظيفا, كطفلِ الهوى, بريئا فى الحب, فهو لذلك ميدان فسيح:

فَجُلَّــقٌ جَـنَّــةٌ تَبْــدُو جَــوَاسِـقُـــها[91] ... مِثْلَ القُصُورِ بِهاَ حُورٌ وَوِلْدانُ

والسَّبْــتُ كَالْعِـيـدِ تَلْقـي الغِيدَ سآنِحَة[92] ... وَقْدْ حَوى الْغِيدَ ميدان وبُستانُ

أنْــزَهُ الطَّــرْفِ فِي المَيْــدانِ مِنْ فَرَحٍ ... والقَلْبُ مِنِّي لِطِفْلِ اللَّهْوِ مَيْدَانُ

ثم ينادي الشاعر, صاحبه ويدعوه إلى المنادمة والشرب, فى هذا المكان الذي وصفه بأحسن الأوصاف بما فيه, ويطلب منه, أن يعجل فى الشرب, لأنهما فى لحظة سعدٍ. فلا يريد أنْ تفوته هذه الفرصة بغياب ضوء البدر الموجود. فيستمر بمخاطبة صاحبه موضحا فرحه وسروره, بأنه فى جنة, وقد تلقته فيها تلك الغيد بالرضا. كما يتلقى رضوان, أهل الجنان بالرضا.

ونلمس فى قول الشاعر, هنا إشارة إلى التحية والسلام من الغِيدِ له ولصاحبه.

ثم يحذر الشاعر صاحبه, حين يراه قد تقاعس وتأخر عن نيل اللذات, فيطلب منه أنْ يقوم لينال اللذات, لأن الكسلان لا يمكن أن ينال اللذات قائلا له :

قُــمْ ياَ نَدِيمِـــي إلى شُـرْبِ المُدامِ بِــهاَ مِنْ قَبْلُ يُدْرِكَ بَدْرَ السّعدِ نُقْصاَنُ

فَأَنْــتَ فِي جَنّةٍ مِـنْــهاَ مُزخْــرَفَــةٍ وَقَدْ تـلـقَّاكَ بالـرضوان رضـوانُ

[88] إن أصل كلمة "إنسان"، وكذا "إنس"، و "أنس": في كلام العرب من الإيناس؛ ومعناه: الإبصار. يقال: آنَسْته، وأنِسْته أي أبصرته. وهنا يقصد به, إنسان العين.

[89] النواح:النحيب والعويل .

[90] النقا: السواد والسمار.

[91] الجوسق: القصر الصغير و الحصن والجمع جواسق.

[92] السانية: الفرص عندما تسنح وتتاح لانسان فتبتسم له الدنيا. والعرب كانوا يتيمنون بالسانح من الطير عندما يمر من مياسرهم الى ميامنهم.

وأنــتَ فِيهاَ عَــنِ اللَّــذَاتِ فِي كَسَلٍ اِنْهَضْ فَمَاَ بَلَـغَ اللَّـذَاتِ كَسْـلاَنُ

ويستمر مخاطبا صاحبه, واصفا له المكان, وما فيه, قائلا له:

" ألم تر إذا أمطر السحاب فى شهر آذار, فإن الأرض تخضر بعد ما يأتي شهر نيسان, فتضحك وتتبسم بوردها واخضرارها".

وإن الشاعر يستمر فى وصف فصل الربيع, وتفتح الأزهار وإشراقها زاهية لامعة فيه, وكيف تسلم عليه الحياة وتحيه. وكيف تعرض تلك الازهار, فى الحدائق والرياض للناظرين والمتفرجين إليها, بجميع ألوانها وأجناسها.

ثم يصف لنا أشجار هذا المكان, بأنها أشجار باذخات شامخات, قد بَسطتْ أغصانها, فهي رطبة خضرة, كالزمرد الأخضر, وقد رُكِّبَ فيها الجواهر واليواقيت والمرجان.

ثم يصف الورد الذي فى ذلك المكان, بأنه مثل حب الشباب, على الخد, حين يصير العَذَارُ له سياجا, فيغطيه ويستره, فهو يفوح كالريحان.

ويستمر الشاعر بوصف تلك الورود, والزهور المتناثرة فى ساحة ذلك المكان والميدان. بأنها متفتحة متبسمة وكثيرة. وأن الأقاح, قد برزت فى أعلاها كجيش للروم, قد أشهر ورفع الصلبان.

ويستمر مُتناولا في نظمه شجر البان, بأنه لما طلع وبرزت أوراقه, أهدى المسك, وعطر الكون, برائحة ذلك المسك:

أَماَ تَرى الأَرْضَ إِذْ أَبْكَى السَّـحاَبَ بِـهاَ آذاَرُهاَ ضَـحِكـتْ إِذْ جـاءَ نـيـسـاَنُ[93]

والزُّهَرُ كَالزَّهْـرِ حَـياهُ الحَـياَ فَـبَـدَتْ [94] ... فِي الرَّوْضِ مِنْهُ إلى الأَبْصارِ أَلْواَنُ

زُمُـرُدٌ قَـضْـبٌ فِيـهاَ مُـركّـبَـةٌ [95] ... جَـواَهِـرُ ويَـواقِـيـتُ وَمَـرْجـاَنُ

كَأَنَّـماَ الْـوَرْدُ خَـدُّ الحُـبِّ حِيـنَ غَدَا .. لَهُ الـعِذارُ سِياجاً وَهُـوَ رَيْحـاَنُ[96]

كَـأَنَّ مَـنْـثُـورُها إِذْ لاَحَ مُـبْـتَـسِـمـاً ... جَيْشٌ مِنَ الرُّومِ بِاَنَتْ فِيـهِ صُلْبَانُ

كَأَنَّـماَ الْبَانُ أَهْـدَى الْمِسْـكَ حِيـنَ بَـدا ... فَعَـطَّـرَ الْكَـوْنَ لـمـَّا أَوْرَقَ الْـبـاَنُ

[93] الشهر الثالث من الشهور الشمسية ويماثل آذار.
[94] الزهـر: حسنة اللون والمشرقة وشديدة الحمرة ومن تسمى زهرة فهي واحدة الزهر وزهرة الدنيا بهجتها وزينتها ومتاعها ومن تسمى زهرية فهي التي تنتمي للزهر وتحتويه وتضمه وتزين المكان.
[95] القضب: كل شجرة طالت وبسطت أغصانها وشجر كشجر الكمثرى وورقه كورقه.
[96] العذار: هنا بمعنى عذار الغلام وجانب لحيته وما سال من اللجام على خد الفرس، ويقال: خلع فلان عذاره، انهمك في الغي ولم يستح ويخجل مما فعل.

ثم يصف الشاعر, المكان الذي هو فيه, بأن ريح الصبا تهب بخمرة من صوب تلك الرياض, وتجاه تلك الحدائق. وقد حملت روائح المسك والبَانِ, فَفَاحتْ وانتشرت بريح خمرة, فمست الكون نشوة, فصار سكرانا.

وينتقل بنا الشاعر الى وصف التُّفاح الأحمر, بأنه كخَدِّ الفتاة أحمرُ اللونِ, وأنه يتسلى بلون هذا التفاحِ الأحمرِ.

ويفهم من الأبيات, بأن لون هذا التفاح ليس بأحمر قانٍ, ولا بأحمر فاتح. وإنما هو أحمر غامق.

ثم يصف نارنجها, بأنه مثل النار من الخارج يتلهب, وجوفه بارد مثل الثلج.

ثم يستمر فى وصف لون هذا النارنج, بأنه كالذهبِ من الخارج, وأنه كالفضة من الداخل:

كَأَنَّ رِيــحَ الصَّـبَا طَافَتْ بِخَمْر هوىً ... مِنَ الرِّيَاضِ فَكُلُّ الْكَوْنِ نَشْـوَانُ [97]

كَأنَّـما حُـمْـرَةَ التـفاحِ خَـدُّ رَشـاً ... لي فِي هَواهُ عن السَلْوَانِ سَلْوَانُ

كَأنَّ نـارَنْـجَـهـا نـارٌ وبـاَطِـنَـهُ ... ثلـجٌ وفِيـهِ لُجَيْـنٌ وهو عـقيانُ [98]

238| db

وينتقل بنا الشاعر, إلى طيور تلك الرياض, وإلى الصوت والخشخشة التي تثيرها كلما طارت, ونزلت تلك الطيور. مبينا بأن هذا الصوت الذي كَوَّنَهُ طيرانُ ونزولُ تلك الطيور. هو أَلَذُّ وأحلا من الصوت الذي يصدر إثر ضربات المغني للأوتار والعود.

ثم يستمر, بوصف ما أحدثته هذه الطيور من صوت, بأنه ليس على نمط ورونق واحد من الأصوات. وأنه على أنواع مختلفة, وأنه تغريد حلو لهذه الطيور, بعد ذلك الارتفاع والطيران والنزول والهبوط لها. وإن هذا التغريد لها, وهي على تلك الأغصان النضرة, هو نواحها. فلا يتمالك سامعها إلا وصغى إليها.

ويستمر الشاعر, بأن بلابل هذا المكان, قد أثارت الوساوس فى صدره, والبلابل في صدور أصحابه. فهاجت إثرها نارُ الحب والصبابة, بحيث صار هو وأصحابه يبكون على صوت تلك البلابل. وأن الشوق قد هزَّهم وحرَّكهم, لما غَنَّ طيرُ الهَزَارِ بأنواع الألحان فى تلك الرياض. فصارت أجفانهم لا تجف, ودموعهم لا تنقطع:

والطيــرُ تَطْــرِبُ بالْعِيــدَانِ نَغَماتِها ... مَا لَيْسَ يَطْرِبُ بِالأَوْتَارِ عِيدَانُ

أَبْـدَتْ فُنُـوناً فَأَفْنَـتْ صَبْـرَ سامِعِـهَا ... بالنَّـوحِ إذْ حَمَلَـتْها فيــهِ أفْنَانُ [99]

بَـلاَبِـلٌ هَـيَّجَتْ مِـنّا بَـلابِـلَـنـا[100] وَهـاجَ مِنّا صَبابَاتٌ وأشـجانُ

[97] النشوان : السكران.
[98] اللجين: الفضة. عقيان: الذهب الخالص.
[99] الأفنان: جمع فنن والفنن: الغصن، وانت افنان واسمك يوحى بالرفعة والسمو، والأفنان مصدر الخير من ثمر وظل وفى الافنان بهاء وجمال.

وهَـزَّنا الشوقُ إذْ غَنّى الهَزَارُ بِــهـا[101] ... فَـلاَ تَجُـفُّ لَنَا بِالدَّمْـعِ أَجْـفَانُ

ثم يصف لنا الشاعر, الشراب الذي فى الكأس, بأنه صاف مشرق. وأن هذه الخمرةَ التي فى الكأس كانتْ موجودة من قبلُ أن تكون زُحَل موجدة فى السماء. ويستمر الشاعر بالوصف للخمرة, فيبن, بأنها كأس خمرة لِباسها تلك المشربة, أو ذلك الدَّنُّ من الفخار. وأن سكونها واستقرارها في برودتها, وهذا هو رُوحٌ لها, وأن شُرْبَهَا يُريحُ كلَ من صارتْ بيده تلك الكأس المدهوقة, بذلك الشراب الصافى المشرق. فأنظر كيف ألبسها الشاعر الفخار, وجعل البرودة والاستقرار والنقاوة والصفاء روحا لها.

واستمر الشاعر فى الوصف للخمرة, بأنها تصب كالماء فى الزجاجة, ولكنها لما تشرق فى الكؤوس فهي كالنار تتلهب وتتأجج:

وَرُبَّ صــافِيَـةٍ فِي الْكَأْسِ مُشْرِقَــةٍ ... كانَتْ وَماَ كانَ فِي الْعلْـيَاءِ كَيْوَانُ [102]

رَاحٌ أَرَاحَتْ لِمَــنْ حَلّــتْ بِرَاحَتِــهِ ... رُوحاً لَهاَ الْقَارُ وَالْفَحْـَارُ جِثْـمَانُ [103]

صُبّتْ لَنَاَ فَهِــيَ ماَءٌ فِي زُجاَجَــتِــهاَ ... وَأَشْرَقَتْ فَهِيَ فِي الْكاَساَتِ نِيرَانُ

ثم ينتقل الشاعر, في أبياته إلى وصف الساقي لهذه الخمرة, مبينا بأنه رَشَأٌ ذو حلاوة وجمال, مُكتحل العينين, مدلل حَسِين, بحيث, لو جندت كل مَن كانت ذات حسن وجمال, لكانت هذه السَّاعِيَة, الساقية, المُوزِّعة للكؤوس سلطانا على ذلك الجيش, أو أراد الشاعر, معنى آخرا, ألا وهو, أن هذا الساقي وإنْ عَبَّرَ عنه بالمذكر, فهو أمر معلوم ينصرف إلى لفظ السقي, وليس ذات الساقي وشخصه. وأما في حالة طلب بَيَان ذالك, فهو أمر آخر.

وإن الشاعر, يصف لنا الساقية التي يهواها, ويصفها, بأنها أحسن وأجمل من سائر النديمات الموجودات فى ذلك المجلس. وأنها مُدَلَّلَةٌ رقيقة حلوة, فهي سلطان الجمال للمجلس.

ثم يستمر, فيتناول أوصافا أخرى, مبينا, بأنها عذبة اللُّمى, ناعسة الأَجْفانِ, إلا أنها مُنتبهة, ليس بها فُتُور ولا خمول, معتدلة القامة, نحيفة الجسم, مُهَفْهَفَةُ القَدِّ, وأنها صاحية مع نَشْوانِهَا.

ثم يشبه الشاعر وجه الساقية, لمن نظر إليها, ببستان, فيه جميع أنواع ما ينبت, ويجنى فى البساتين. ثم نرى الشاعر, يستمر بوصف الوجه لها, ويتناول الشامة التي فى وجه تلك الساقية الحسناء. وهي من أمارات الحسن والجمال, وبأنها قد جننت عاشقها بتلك الشامة التي فى ذلك الوجه:

[100] البلابل: وسواس الصدر.
[101] الهزار: طائر حسن الصوت , فارسى معرب. ويقال له: هزار دستان لانه يغنى ألحانا كثيرة.
[102] كيوان: زُحَلُ
[103] القار:المستقر والبارد.

فأنظر, ما أروع هذا التشبيه, فأن الشاعر, أولا شبه الوجه بالبستان, بأن فيه من أنواع الثمار. ثم قد تناسى ذلك الوجه, وأنزل الشامة كأحسن نبتة أو ثمرة أينعت فى ذلك البستان. ثم وصف لنا تلك الشامة, بأنها مدورة مثل الكرة, والصدغ مثل المحجن لهذه الكرة, والخد لها ميدان, فهكذا صوَّر جانب الوجه والخد, مع الصدغ بتلك الشامة المدورة, كصورة جميلة لِلُعْبَةِ الحُورةِ[104].

يَسْعى بِهاَ رَشَأ بالسَّحَـرِ مُكْتَـحِـــلٌ ... حُلوُ الدَّلاَلِ لِجُنْدِ الْحُسْنِ سُلْطَانُ

عَذْبُ اللُّمى نَاعِسُ الأَجْفـاَنِ مُنْتَبِـهٌ ... مُهَفْهَفُ القدِّ صاَحٍ وَهُوَ نَشْوَانُ

كَأنَّــماَ وجَــهُــهُ فيِــهِ لِـعاَشِـقِــهِ ... بُسْتاَنٌ والخالُ فيِ البُسْتاَنِ جَنّانُ [105]

كَأنَّـماَ خـاَلَـهُ لَـمَّا بَـــدا كُـــرَةٌ ... والصَّدْغَ جَوْكَانُهاَ والخَدُّ مَيْداَنُ [106]

ولو أردنا أن نعنون لهذه القصيدة, ونحن مُلمين بحالة هذا الشاعر, أو أردنا أن نعبر عن الحالة التي هو فيها, لقلنا, يريد هذا الشاعر, أن يقول : "إذَا قَرِحَ الجِنَانُ بَكَتِ الْعَيْنَانُ"

القصيدة الرابعة

240| db

إن الشاعر فى هذين البيتين الذيْن نظمهما بحضور أحد الأعيان, لقد أوردتهما المصادر عند ذكر سيرة الشاعر, بأنه قد أنشدهما بحضور "ابن خلكان". - و كما أشرنا من قبل, بأن "خبر الالتقاء, مع ابن خلكان" غير صحيح. ولا يمكن تحققه, و لعله تحقق مع غير "ابن خلكان"- .

وأن الشاعر فى هذين البيتين, قد أظهر تمكنه من نظم الشعر بديهيا, عندما طُلِب منه نظم الشعر. وقد صاغ هذين البيتين, بظم كامل مُلِمًّا بالمعنى والموقف. وقد بين الشاعر حالته فى نظم الشعر, بأنه بديهي, ولا يصطنع الشعر إصطناعا, وأن خاطره, لا يسعفه دائما بنظم شعر, يوافق النظم الرائق المقبول, معنى ونظما.

ثم نراه فى البيت الثاني, يُقَدِّرُ السامع الذي سيحكم على شعره, ويشبهه بالبحر الزاخر المتلاطم, وأنه, هو المُتَيمم بالترب, فلا يبقى له وضوئا عند رؤية البحر والماء .

وهذان البيتان من الطويل:

ماَ كُلُّ وَقْتٍ فيهِ يَسْمَـحُ خَاطِـرِي بِنَظْمٍ قَرِيضٍ رائِقِ اللَّفْظِ والمَعْنى [107]

[104] الحورة: لعبة قديمة كان يلعبها العرب.

[105] الخال: ذات الخال: صاحبة الشامة في البدن وهو من أمارات الحسن. الجنان: من كل شئ جوفه والجنان القلب او بمعنى مجنن بحسنه.

[106] الصدغ :جانب الوجه من العين إلى الأذن و الشعر فوقه والجمع أصداغ و أصدغ. الجوكان: هو مركب من لفظتين فارسيتين أيضاً: إحداهما جوكان وهو المحجن الذي تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان. الأبيات تفرد في ايرادها الكتبي,ج 1 ص 38.

[107]القريض: الشعر الموزون المقفى باللغة الفصحى سموا الشعر قريضا لأن اشتقاقه من القرض وهو القطع لأنه يُقرض من الكلام قرضا، أي يقطع منه قطعا كما يقرض الشيء بالمقراض.انظر: العلوي , المظفر بن الفضل ,نضرة الإغريض في

وَهَلْ يَقْتَضِي الشَّرْعُ الشَّرِيفُ تَيَمُّماً ... بِتُرْبٍ وَهَذَا الْبَحرُ يا صاَحِبِي مَعَنَا [108]

الخامسة الأبيات:

وإننا لنرى بداهة نظم الشاعرأيضا, فى هذين البيتين التاليين, وتمكنه من إنشاد الشعر ونظمه إرتجالا, عندما يطُلب منه إنشادَ شعرٍ فى مواقفَ ومشاهدَ تحتاج إلى التصوير الفني العميق.

فعلى ما يروى أنه "عندما نظر بعض أصحابه إلى إمرأة برزتْ بصفحة بدر فى حندس[109]، وغرست فوق خدها زهرة نرجس، فسألوه, أن ينظم فى ذلك شعراً، وينفسَ به كرب قلوبهم التي أغترت بها" فنظم "الشاعر عين بصل" هذين البيتين، وأنشد الحاضرين بهما.

فانظر إلى هذا التعبير والتصوير الذي أورده الشاعر فى هذين البيتين, فإنه, جعل الصورة تبدي كأنها كوكب يتلألأ فى كبد السماء, وهو بجانب القمر.

وهذا من روائع التصوير الذي يمكن التعبير عنه, فى مثل هذا الموقف. وهما من المديد:

غَرَسَتْ فِي الْخَدِّ نَرْجِسَةً ... فَحَكَتْ فِي أَحْسَنِ الصُّوَرِ

كَوْكَباً فِي الْجَـوِّ مُـتَّـقِداً[110] ... قَدْ بَدا فِي جانِبِ الْقَمَـــرِ [111]

السادسة الأبيات

وله بيتان آخران, وقد أنشدهما الشاعر, بعد لومٍ وتعنيف, قد ورد من قِبَلِ بعض الناس إليه, إثر بيعه لتلك القبآت التي كانت تهدى إليه, ليقتات بثمنها.

فنرى الشاعر, يرد بهذين البيتين على عاذله ولائمه, طالبا منه أن يترك التعنيف واللوم بسبب بيعه, لما أهدي إليه. فإنه, قد يبين فيهما سبب بيع ما أهدي إليه, ويصرح بذلك, بلا إحجام وتردد. والظاهر أنَّ ليس له ما يملك غير تلك القبآت التي أهديت إليه, فاضطر إلى بيعها.

وكذلك, قد بانَ, وظهر من شطر البيت الثاني, أنه قد تألم وتأثر من كلام لائمه ومعنفه. وإن هذا يُستنبط من الرد للشاعر علي ذلك العاذل, ومن حِدَّةِ الألفاظ التي قد

نصرة القَريض، تحقيق نُهى عارف الحسين، مطبواعت مجمع اللغة العربية بدمشق، 1976, ص 8؛ الصفدي,أعيان؛ والزركشي,عقود: رايق؛ الكتبي: لائق.

[108] الأبيات في ابن تغري بردي, النجزم, ج 8 ص 226. ؛ الزركشي عقود , ص17 ؛ وقد ورد هذان البيتان في الصفدي,أعيان,ج 1 ص 17؛ الصفدي,الوافي, ج1 ص 46.

[109] حندس: الظُّلْمَة، والليل الشديد الظلمة؛ وأَسْوَدُ حِنْدِسٌ: شديد السواد، كقولك أَسْوَدُ حالِكٌ.

[110] الصفدي,أعيان: الافق.

[111] الابيتان في الصفدي,أعيان,ج1/ص17. الصفدي,الوافي, ج1 ص 46.

تجاوزت حدَّ الوِفاق للرفقة والصحبة, فى النصح والتحذير, واقتربت الى حدِ ذلك السب, والرد القاسي الشديد. وإن الشاعر, كأنه يقول :

" أنا جعتُ وبعتُ القِباء, بعد القباء, وهذا ليس فيه ما يُشيننني. أما أنتَ, لوكنتَ بمكان, وفى حالتي, وقد جعتَ, ولم تجد ما تتعيش به وتَقْتاته, لساقك هذا الجوع إلى أقبح الأعمال, وهو عمل القوادة, ولو أفلست, يا لائمي, فلم تتردد فى بيع أقدس الأماكن, وهي "قُبا" التي عرفت واشتهرت مسجدها.

ويستنتج من هذين البيتين, أن للشاعر شخصية قوية, مع فقره وحاجته إلى إحسان ومساعدة الناس. فإنه, لم يرضخ, ولم يسكت على ذلك اللوم والعذل.

وأما الأمر الثاني, فإن الشاعر فى هذين البيتين, قد صور لنا الحالة التي كان يعيشها, من فقر وعوز فى المؤنة, وهي حالة تؤلم القلب. ويمكننا من أن نحمل معنى "قُبا الثانية" فى البيت الأول, على "منطقة قُبا" ذلك المكان المعروف بـ"مسجد قُبا" قرب المدينة المنورة. إلا أن المصادر, لم تذكر لنا, أنه ذهب إلى الحج, حتى صار قد راى "قُبا", وبعد الزيارة صار يبيع القَباء التي تلبس.

وأحببنا هنا, بأن لا يفوتنا المعنى الثاني لـ" قُبا " فنبهنا عليه فى هذا المكان.

242| db

وهذان البيتان من البسيط:

وقائِلٍ قالَ: إبْراهِيمُ عَيْنُ بَصَــلٍ ... أَضْحى يَبِيعُ قَباً فِي النَّاسِ بَعْدَ قَبا [112]

فَقُلْتُ: مَهْ ياَ عَذُولِي لاَ تُعَنِّـفُـنـي[113]... لَوْ جِعْتَ قِدْتَ وَلَوْ أَفْلَسْتَ بِعْتَ قُبا [114]

السابعة الأبيات

وله بيتان من قصدة طويلة, لم نعثر عليها فى المصادر التي ذكرت سيرة الشاعر وأشعاره.[115] وإن الشاعر مع ما قيل عنه, بأنه عامي, إلا أن هذين البيتين, قد دلانا على أنه ممن يعرف الأوزان الشعرية, والقريض من النظم. لأنه فى الشطر الأول من البيت الأول, قد أشار إلى سِكنات المقاطيع فى الشعر. فهذا يدل على أنه, كان عارفا بالشعر وأوزانه.

وأما فى البيت الثاني. فإنه, قد إعترف بالعجز فى نظم قصيدته على وزن واحد, ولم يقع وراء النظم, فى تكلف من تكملة نظم الأبيات, على نفس النظم والوزن الذي بدأ يختل لديه. ولو عثرنا على باقي الأبيات لهذه القصيدة, لظهر نسق القصيدة ووزنها فى تلك الأبيات.

[112] الكتبي: قنا.
[113] الصفدي,أعيان؛ الصفدي,الوافي:كم
[114] الأبيات من: الكتبي,ج1 ص36,الصفدي,الوافي, ج1 ص47؛ الزركشي,عقود, ص 17.
[115] البرزالي: هو الشيخ الامام المحدث الحافظ الرحال مفيد الجماعة زكي الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أبي يداس الاشبيلي المتوفى سنة 739 هـ, وبرزالة: قبيلة بالاندلس. انظر ترجمته: الزركلي, الأعلام, ج 2 ص 48.

وإن هذا, ما هو إلا دليل على معرفة الشاعر بالأوزان, واعتراف بالعجز, والمحافظة على الوزن للأبيات التي نظمها.

والحقيقة, أن التنسيق ووحدة الوزن فى القصيدة, لا يحصل ولا يتيسر, لكثير من الشعراء المشهورين الذين درسوا النظم ودرسوه. فما بالك بشاعر أمي عامي؟ وقد إعترف بذلك.

وعلى العموم, فإن البيت الثاني, ناسب البيت الأول بالمعنى والمضمون.

وهما بيتان من الخفيف قالهما فى الشبكة والسمك: [116]

كَمْ كَسَبْنَاَ بَيْتاً لِكَيْ نُمْسِكَ الـ ... سِّـكَانَ مِنْـهُ فِي سآئِرِ الأَوْقَاَتِ **117**

فَمَسَكْنَاَ السِّكَانَ وَانْهَــزَمَ الْـ ... بَيْـتُ لَدَيْـنَاَ خَـوْفاً مِنَ الطَّاقَاَتِ **118**

المصادر:

ابن تغري بردي, جمال الدين أبو المحاسن يوسف الاتابكي, النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة, تقديم وتعليق: محمد حسين شمس الدين الطبعة الأولى, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, 1992.

ابن تغري بردي, جمال الدين ابي المحاسن يوسف , الدليل الشافى على المنهل الصافى, تحقيق: فهيم محمد شلتوت, الطبعة الثانية, مطبعة دار الكتب المصرية, القاهرة, 1998.

ابن عماد الحنبلي, أبو الفلاح عبد الحي, شذرات الذهب فى أخبار من ذهب, طبعة جديدة, دار التراث العربي, بيروت.

ابن منظور, محمد بن مكرم الأفريقي المصري, لسان العرب, عدد الأجزاء : 15 الطبعة الأولى, دار صادر, بيروت.

جويا جهانبخش نقد كتاب: أعيان العصر و أعوان النصر, الناقد: جويا جهانبخش (عن مجلة «آينه پژوهش» ع 5 س 7)

الزركلي, خير الدين, الأعلام, طبعة الخامسة, دار العلم للملاين, 1980.

الزركشي, عقود الجمان وتذيل وفيات الأعيان, المخطوط, عمادة شؤون المكتبات, جامعة الملك سعود, رقم: 3065 حرف: ب, ص 17.

الصفدي, صلاح الدين خليل بن آيبك, أعيان العصر وأعوان النصر, تحقيق: الدكتور علي أبو زيد, الدكتور نبيل أبو عشمة، الدكتور محمد موعد، الدكتور محمود سالم محمد, تقديم: مازن عبد القادر المبارك, الطبعة الاولى. دار الفكر, دمشق 1998 .

[116] الكتبي,ج 1 ص 36؛ الصفدي,الوافي, ج1 ص 47؛ الزركشي,عقود, ص17.

[117] السكان: يقصد به المقاطع العروضيه التي يتكون المقطع العروضي من حرفين على الأقل وقد يزيد الى خمسة أحرف. والعروضيون يقسمّون التفاعيل الّتي تتكون منها أوزان الشعر إلى مقاطع تختلف في عدد حروفها وحركاتها وسكناتها. والسبب الخفيف: هو يتألف من حرفين أولهما متحرك وثانيهما ساكن نحو : لم _ عن _ قد _ بل _ كم _ ان _ هل. انظر: مجدي وهبي وكامل المهند, معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب, الطبعة الثانية, مكتبة لبنان, بيروت لبنان 1984, ص 380.

[118] . ذكر الصفدي,الوافي, ج1 ص 47. أنها "مطولة جدا، و قد ساقها الحافظ البرزالي بتمامها وكمالها، ثم ذكر من شعره غيرها" إلا أني لم أعثر على ما أشير إليه لأن كتاب البرزالي مخطوط. وإن المخطوط الموجود ناقص. ويا ليت عثرنا عليها.

الصفدي, صلاح الدين خليل بن آيبك, الوافى بالوفيات, تحقيق: واعتناء: أحمد الأرناوطي– تركي مصطفى, دار إحياء التراث العربي, لبنان بيروت.

العسقلاني, شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني, الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة, تحقيق مراقبة: محمد عبد المعيد ضان, عدد الأجزاء 6 , مجلس دائرة المعارف العثمانية, صيدر آباد, الهند 1972م

العلوي, المظفر بن الفضل, نضرة الإغريض فى نصرة القَريض، تحقيق نُهى عارف الحسين، مطبواعت مجمع اللغة العربية, دمشق، 1976.

الفيروزآبادي, مجد الدين محمد بن يعقوب, القاموس المحيط, الجز: 1, الطبعة الثانية, تحقيق مكتب تحقيق التراث فى مؤسسة الرسالة, 1987 .

الكتبي, محمد بن شاكر, فوات الوفيات, المحقق: حسان عباس, الطبعة الأولى, دار صادر, بيروت 1973- 1974.

كحالة , عمر رضا, معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية, الطبعة الاولى, مؤسسة الرسالة, 1999.

مجدي وهبي وكامل المهند, معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب, الطبعة الثانية, مكتبة لبنان, بيروت لبنان, 1984.

موقع:http://www.almaany.com/arab/meem1.php

ياقوت , شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي, معجم البلدان, عدد المجلدات 5, دار صادر, بيروت, لبنان, 1993.

❋❋❋